السيرة الذاتية في الفكر العربي المعاصر
كتاب «حصاد السنين» لزكي نجيب محمود انموذجا

د. عياد أحمد(*)

مقدمة

السيرة الذاتية فن قصصي، يجمع بين الأدب والتأريخ والتأمل والفكر، وأنه قصصي لأنه يعتمد على السرد أصلا، وأنه يجمع بن الأدب والتأريخ، لأنه يقوم أصلا على عملية الاسترداد التاريخي، فهو مذكرات شخص، وتاريخ حياة، لكن وفق شكل أدبي يقوم على بنية معينة تضمن لقارئه نوعا من التذوق الفني والأدبي شأنه في ذلك شأن جميع ضروب الأدب من شعر ورواية وقصة، أما أنه يضم التأمل والفكر، فلأنه تخريج ثاني للماضي، وإعادة بناء تاريخ، وعملية التخريج وإعادة البناء تستلزم جميع القدرات العقلية والفكرية، هذا علاوة عن كون هذا الفن وهو عملية استرداد أو توثيق لأحداث تاريخية قد تشمل الأحداث الفكرية والمعرفية لصاحبه، إن لم يقتصر عليها.

هذا ويأتي في تعريف «السيرة» لغة أنها الهيئة أو الطريق أو الحالة، وقد ورد لفظ «السيرة في القرآن الكريم في سورة «طه» في قوله تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٢١] أما في لسان العرب فقد ورد النص التالي: «سار بهم سيرة حسنة والسيرة: الهيئة وسير السيرة: حدث أحاديث الأوائل»(١) أما في المعجم الوسيط فهي «السنة والطريقة والحالة التي يكون عليها الإنسان وغيره»(٢).

بيد أن هذا المعنى اللغوي لا يختلف عن المعنى الاصطلاحي لها، فهي فن أدبي من خلاله يسجل صاحبه: أديبا وفيلسوفا، قائدا أو مصلحا تاريخ حياته وحالاته الفكرية والأدبية

(*) جامعة تلمسان. الجزائر.

(١) لسان العرب. ط١، مج٣، دار الجيل. ١٩٩٧. ص٣٧٨.

(٢) إبراهيم مصطفي. المعجم الوسيط. ط٢، ج١، المكتبة الإسلامية. ص٤٦٧.

والقيادية والإصلاحية تبعا لمراحل حياته التي خبرها، لكن وفق أسلوب يقوم على ثلاثة دعائم أساسية: أدبية وقصصية وتفسيرية: أدبية أي وفق شكل وبنية أدبية، قصصية أي مسترجعا لأحداث تاريخية، تفسيرية أي موضحا لما فات من مواقف وحالات فكرية وأحداث توضيحا تبريريا في الكثير من الأحيان، فهي - السيرة الذاتية- « أدب قصصي وتفسيري»[١].

وفن السيرة الذاتية عرفته البشرية منذ القدم، والتاريخ المعرفي البشري شاهد على الكثير من الأعمال الفكرية والمخلدات التي ما زلنا نقرؤها إلى اليوم، ولعل من أبرزها: «اعترافات» القديس أغسطين وكذا «اعترافات» الفيلسوف وعالم الاجتماع روسو، وغيره من الأعمال التي عرفها الغرب القديم والحديث والمعاصر.

أما عند العرب فإن أول تداول لهذا المصطلح «السيرة» إنما كان دوما يربط بسيرة الرسول الكريم، أي السيرة النبوية، إلى أن ظهر عند العرب والمسلمين سيرا ذاتية لأشخاص لا يأتيهم الوحي، بل مفكرين أو خلفاء أو قواد أو غيرهم مثل ما كتب كسير عن الخلفاء الراشدين مثل عمر بن الخطاب أو ما كتب عن القواد والفاتحين مثل خالد بن الوليد.

وتأصل فن السيرة الذاتية في التاريخ المعرفي البشري، إنما يوحي بأهميته أو وجود غايات معرفية وسلوكية له، فقد يسأل سائل: لماذا الاعترافات؟ ولماذا الشهادات؟ ولماذا الحياة؟[٢]

حياة هؤلاء من الرواد والمفكرين لاشك أنها سجل من خلاله نقرأ أفكارهم ومواقفهم وتوجهاتهم، فما الذي تحمله السيرة الذاتية من أفكار ومعارف ينضاف إلى أعمال المفكر وعطاءاته الفكرية؟ ما مكانة مضمون السيرة الذاتية لمفكر ما ضمن إنتاجه وعطاءه الفكري؟ وهل ما كتب من سير ذاتية عند المفكرين العرب المعاصرين يضم من الأفكار النهضوية ما هو بمنزلة مشاريعهم الفكرية؟ هل يمكن أن تختزل السيرة الذاتية عند المفكر العربي المعاصر مشروعه الفكري؟

السيرة الذاتية في الفكر العربي والإسلامي

تاريخ العرب والمسلمين حافل بالكثير من الأعمال التي يمكن تصنيفها ضمن فن السيرة

(١) إحسان عباس. فن السيرة. ط٥، دار الشروق، عمان، الأردن، ١٩٨٥.

(٢) «اعترافات» أغسطين وروسو، «شهادات» مالك بن نبي (مذكرات شاهد على القرن)، «الحياة» أحمد أمين (حياتي).

الذاتية ومن أمثلتها «السيرة الفلسفية» لمحمد بن زكريا الرازي و«المنقذ من الضلال» لأبي حامد الغزالي و«الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيان التوحيدي و« لفتة الكبد في نصيحة الولد» لعبد الرحمن ابن الجوزي وغيرها من الأعمال الفكرية التي تصنف ضمن فن السيرة الذاتية، هذا وناهيك عن أعمال الأدباء العرب ضمن هذا الفن.

أما في الأزمنة الحديثة ومع عصر النهضة وفيما يعرف بالفكر العربي المعاصر، فرواد هذا الفكر لم يحيدوا عن هذا الفن، بل ثمة الكثير من المفكرين العرب المعاصرين من أخذ بفن السيرة الذاتية مسجلا بذلك محطات تاريخه ومواقفه وأفكاره، شأنه في ذلك شأن أسلافه وشأن مفكري ورواد البشرية، ولعل من أمثلة ما نسجله من سير ذاتية في الفكر العربي المعاصر كتاب «الأيام» لطه حسين و«حياتي» لأحمد أمين و«زهرة العمر» و«سجن العمر» لتوفيق حكيم و«مذكرات شاهد على القرن» لمالك بن نبي و«قصة عقل» و«قصة نفس» و«حصاد السنين» لزكي نجيب محمود و«أنا» و«حياة قلم» للعقاد وغيره من الأعمال.

لكن لابد من الإشارة إلى أن فن السيرة الذاتية عند المفكرين والفلاسفة من حيث مضمونه يختلف عما هو عند سواهم من غير الفلاسفة، فالسيرة الذاتية عند الفيلسوف والمفكر هي نصوص فلسفية وعطاء فلسفي وفكري ينضاف إلى عطاءاته الفلسفية والفكرية الأخرى، وكذلك هو شأن رواد الفكر العربي المعاصر، قراءتنا لسيرهم الذاتية ليس قراءة لتاريخ وحياة شخص بل حياة فكر كيف تطور ونمى وكيف انتقل من مرحلته الجنينية إلى مرحلة القوة والنضج، فهي - السيرة الذاتية في الفكر العربي المعاصر- بتعبير العقاد: «حياة قلم».

حياة فكر أو حياة قلم عند المفكرين العرب المعاصرين إنما تأخذ أبعادا أخرى وتتغذى من وسط ثقافي وفكري ومعيش معين، فذلكم لأن فكر النهضة انبثق من رحم الأزمة، فالأزمة هي الوسط الذي يحتضن النهضة، كما أن هذه الأزمة لم تكن حبيسة الواقع المعاش، بل كانت كذلك أزمة عقول وأقلام وأفكار، ولعل تعابير «حياة قلم» للعقاد و«قصة عقل» لزكي نجيب محمود اصدق دليل.

وأزمة العقول والأقلام هي ما احتضن طموح النهوض، هذا الطموح الذي جاء على شكل وصفات وهندسات تهندس لفعل النهضة فكانت مشاريع الفكر العربي المعاصر: مشاريع فكرية تضم مواقف وتوجهات وقناعات فكرية كل منها يقرأ من خلال وضعية ما عاشها

صاحب المشروع، فالموقف الفكر كان عند صاحبه في البداية حالة ووضعية: حالة انفعالية إزاء واقعة ما، بعدها تحول إلى وضعية معرفية للتساؤل والاستنتاج والتعميم والتجريد أي إلى وضعية معرفية لعقلنة الواقعة، فيأتي بعدها الموقف الفكري أو الرؤية، ولذا لما يؤرخ المفكر و يوثق حياته ومحطاتها، فإنما هو بالضرورة يوثق لهذه الحالات وهذه الوضعيات.

ولعل هذا ما أكسب فن السيرة الذاتية وظيفة تبريرية من خلالها يعمد المفكر عندما يغرد تغريدة البجع[1] إلى محاولة الرجوع إلى ما تبناه من مواقف وما صدر عنه من عطاءات فكرية ذاكرا ما كان يصاحبها من حالات ووضعيات حتى يكسبها نوعا من المشروعية والتبرير.

غير أن هذه الوظيفة التبريرية لفن السيرة الذاتية في الفكر العربي المعاصر، هي بالجوار من وظيفة ثانية له، وهي الوظيفة التوضيحية، إذ تبرير المواقف الفكرية هو سعي نحو توضيحه، وهذا ما يكون له وقعا عند القارئ، إذ في حالات كثيرة لا يكتمل الفهم لكن ما تحمله السيرة الذاتية من تبرير وتوضيح يكمل الفهم و ينضجه، فتكون السيرة الذاتية في الفكر العربي المعاصر بوظيفتيها -التبريرية والتوضيحية- قراءة لنصوص خلت.

كما أن السيرة الذاتية بوظيفتيها التبريرية والتوضيحية تكون أشبه بملحق يلحق بالمشروع الفكري فيوضحه و يفصل ما ذكر مجملا فيه، بل كثيرا ما لا نفهم المتون إلا بالعودة إلى ملاحقها.

فهل هذه الوظائف: التبرير، التوضيح، والملحق للسيرة الذاتية نلمسها في كتاب «حصاد السنين للدكتور زكي نجيب محمود؟ ما هو الفلسفي في كتاب «حصاد السنين»؟

بطاقة قراءة لكتاب «حصاد السنين»

شكل الكتاب:

العنوان الكامل للكتاب هو «حصاد السنين» للدكتور «زكي نجيب محمود» وهو آخر ما كتب، وقد طبع لأول مرة سنة ١٩٩١ من طرف دار الشروق، والنسخة التي بين أيدينا هي لنفس الناشر لكن الطبعة الثالثة الصادرة سنة ٢٠٠٥.

---

(١) «تغريدة البجع» إشارة إلى آخر حياته وقد استعمل الدكتور زكي نجيب محمود هذا المصطلح بهذا المعنى.

ويحمل غلاف الكتاب صورة للمفكر ويقع في ٤٠٣ صفحة، ويبدأ بمقدمة متبوعة بمجموعة من المقالات عددها أربعة عشر مقالا، لكن بعض العناوين يتكرر مع أكثر من مقال، الأمر الذي جعل المقال الواحد يتكون من أكثر من جزء، فكان العدد الكلي للمقالات ٣٠ مقالا، لينتهي الكتاب بفهرس عام يحيل على مكان تواجد هذه المقالات من الكتاب.

كما أن الكتاب لم يتضمن خاتمة لا من قبل المفكر ولا من قبل الناشر، ضف إلى ذلك أنه لا يشمل قائمة للمراجع والمصادر، كما أنه في جميع صفحاته ومقالاته لا يتضمن إحالات.

التعريف بالمفكر:

هو الدكتور «زكي نجيب محمود»، مفكر وفيلسوف مصري ولد بمحافظة «دمياط» المصرية سنة ١٩٠٥ للميلاد الموافق لسنة ١٣٢٢ للهجرة، يلقب بأديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء وذلك لاشتغاله بالفلسفة والأدب على حد سواء، تعليمه الابتدائي والثانوي والجامعي كان بمصر، لكن بعد تخرجه سنة ١٩٤٣ انتقل إلى انجلترا لإكمال دراساته العليا، وتحصل عل شهادة الدكتوراه في الفلسفة سنة ١٩٤٧ من جامعة «لندن» بعنوان: «الجبر الذاتي» ثم بعد عودته إلى مصر عمل كمدرس بجامعة القاهرة إلى غاية ١٩٦٥ أين حصل على التقاعد ثم بعد ذلك سافر إلى دولة الكويت أين عمل بها كمدرس في إحدى جامعاتها.

وللمفكر ثلاثة مجالات فكرية انشغل بها، وهي الفلسفة والصحافة والأدب، فهو الفيلسوف والصحفي والأديب، لكن بالنظر إلى طريقة تحليله ومنهجه وكذا بالنظر لما اشتغل به من قضايا، لم يكن نجيب محمود المفكر يختلف عن نجيب محمود الصحفي ولا عن نجيب محمود الأديب، فرغم اختلاف المجالات المعرفية، لم تختلف قناعاته وتوجهه الفكري.

عرف «زكي نجيب محمود» باتجاهه الوضعي العلمي، ودعوته إلى تبني المنهج العلمي لتحقيق مشروع وطموح النهضة العربية، والوضعية المنطقية «راجت في الفكر العربي المعاصر بفعل أحد روادها العرب زكي نجيب محمود ثم تطبيقها بعد عرضها ابتداء من عام ١٩٧١ في موضوعات تراثية مثل الثقافة التقليدية في «تجديد الفكر العربي» والتصوف في «المعقول واللامعقول» وفي الأخلاق في « قيم من التراث» و إصدار أحكام عامة على الفكر العربي مثل ارتباطه بالوجدان والدين قدر ارتباط الغرب بالعلم»[1].

(١) حسن حنفي. حصار الزمن. ط١، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، ٢٠٠٧. ص١١٠.

وللمفكر زكي نجيب محمود عدد كبير من المؤلفات، الكثير منها طبع في دار الشروق ومنها:

- المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري.
- أفكار ومواقف.
- تجديد الفكر العربي.
- ثقافتنا في مواجهة العصر.
- مجتمع جديد أو الكارثة.
- من زاوية فلسفية.
- في حياتنا العقلية.
- هذا العصر وثقافته.
- في فلسفة النقد.
- هموم المثقفين.
- قشور ولباب.
- عربي بين ثقافتين.
- حياة الفكر في العالم الجديد.
- جنة العبيط.
- الكوميديا الأرضية.
- موقف من الميتافيزيقا.
- شروق من الغرب.
- قصة نفس.
- قصة عقل. قيم من التراث.

- في مفترق الطرق.
- عن الحرية أتحدث.
- رؤية إسلامية.
- في تحديث الثقافة العربية.
- بذور وجذور.
- حصاد السنين وهو آخر كتبه صدر سنة ١٩٩١ .

كما كان للمفكر عدة مقالات أدبية وصحفية لم تختلف في مضمونها عن ما حملته كتبه من أفكار ورؤى ومواقف عرف بها الدكتور والتي تتلخص في نزعته الوضعية المنطقية الداعية إلى الأخذ بالمنهج العلمي والدفاع عن فكرة الوضوح، وكان ذلك توجهه الفكري إلى غاية وفاته عام ١٩٩٣ .

مضمون الكتاب:

جاء الكتاب على شكل مجموعة من المقالات المختلفة المضامين والعناوين، لكن بعضها يتكرر عنوانه، كما أن كل منها يتحدث عن مرحلة زمنية معينة من مراحل عمر المفكر، والغالب فيها أنها أتت على شكل عقود زمنية، كما أن المفكر لا يقوم بمسح كلي لأحداث المرحلة و إنما يقصر حديثه عن الشاغل الفكري له فيها، على أن يبقي المفكر من هذه الشواغل الفكرية فقط على ما كان منها مهيمنا محوريا، فيجعله موضوعا أساسيا لمقاله.

وعدد المقالات التي ضمها الكتاب أربعة عشر مقالا بعد مقدمة وهي: «تغريدة البجع»، «نار ونور»، «منهج جديد»، «فرار إلى مدينة الأحلام»، «سنوات التحول» الذي تكرر كعنوان ثلاثة مرات وبمضامين مكملة لبعضها البعض، ومقال «رؤية واضحة» وهو الآخر يتكرر ثلاثة مرات كعنوان، وقد جاء بعد مقال «الصورة من بعيد» ويليه مقال «مطلع النور» الذي يتكرر كعنوان ثلاثة مرات، ثم مقال «المطبوعة الزرقاء» الذي هو الأخر يتكرر كعنوان ثلاثة مرات بمضامين متكاملة، ثم مقال «إرادة التغيير» بثلاثة أجزاء، ومقال «في سبيل الوضوح» بجزأين، ثم مقال «خيوط تلاقت» بجزأين هو الأخر، ثم مقال «رؤية موحدة» بثلاثة أجزاء، ثم آخر مقال «نهاية الطريق» بثلاثة أجزاء هو الآخر.

□ ففي مقاله الأول «تغريدة البجع» نعي للكاتب لنفسه، وذلك بين من خلال العنوان، كما أنه في هذا المقال يعطي المفكر أهم المحطات السياسية والفكرية والاجتماعية في حياته مكتفيا في ذلك بالمحوري منها والذي يراه ممثلا في الحربين العالميتين وكذا الصراع بين الاتجاهات الفكرية العربية المعاصرة.

□ أما في مقاله الثاني «نار ونور» فيتحدث عن مرحلة العشرينات من القرن الماضي والتي يعتقد أن أهم ما يميزها هو انضمامه إلى جمعية التأليف والترجمة والنشر، ووقوفه على الجو النفسي والفكري بين أعضائها، وكذا بداية إيمانه بفكرة التطور والتقدم واقتناعه بها.

□ وفي مقاله الثالث «منهج جديد» يتحدث عن بداية مرحلة الثلاثينات وتجربته في ترجمته لمحاورات أفلاطون الأربعة، وتأثره بالمنهج السقراطي الرياضي القائم على مبدأ الماهية، ويقيم دعوته بعد هذا التأثر بضرورة ضبط المفاهيم عند أي عملية تحليل أو حوار، كما يأخذ عن سقراط عملية التوحيد بين المعرفة والفضيلة، دون أن يحيد عن اعتقاده الجاعل من المنهج الرياضي منهج العصور الوسطى، أما منهج العصر الحالي، منهج النهضة فهو المنهج العلمي القائم على الأمبريقية والتحليل والتركيب والمفضي إلى الإبداع.

□ في المقال الرابع» فرار إلى مدينة الأحلام» يصور المفكر صدمته من ذلك التعارض بين ما يكتب عند مفكري عصره وبين الواقع العربي المعاش، وذلك عندما يسافر إلى فلسطين والتقائه بالشاب اليهودي أولا وبالشاب الفلسطيني ثانيا، فينزع شيء في صدره يقفله داخل عالم غير واقعي أشبه ما يكون بأحلام، بشاكلة ما كونه افلاطون في جمهوريته الفاضلة وبيكون في «أطلنطس الجديدة» ووليم موس في «جنة أرضية» وتوماس مور في «يوتوبيا» والفارابي في «المدينة الفاضلة».

□ في مقاله «سنوات التحول» حديث عن مرحلة الأربعينات، التي شهدت سفره إلى انجلترا وتزامن ذلك مع حدث الحرب العالمية الثانية ونشأة هيئة الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية وميلاد ميثاق حقوق الإنسان ودولة إسرائيل، محددا لمواقفه وقراءاته لتلك الأحداث التي بدت له في إطارها العام مفعمة بالتناقض والمغالطات، فبدأ المفكر يكتب بقلم الصحفي تارة وبقلم الأديب تارة أخرى عن الحرية والتسلط وحقوق الإنسان.

□ في مقاله « الصورة من بعيد» يتحدث عن بداية تشكل رؤيته للواقع العربي فيلخصا

في قوله: «وخلاصة الفرق بيننا وبينهم هو أنهم يعيشون عصرهم الذي صنعوه بأيديهم ونسجوا خيوطه على أنوالهم بكل حسناته وسيئاته، وأما نحن فنقف وقفة تشبه الرفض الذي يأبى على صاحبه أن يخوض هذا البحر الهائج الذي هو عصرنا»[١] مستدركا أن ميلاد دولة إسرائيل ودخول العرب في حرب ضدها هو أهم دليل يؤكد عقم موقف رفض العصر.

□ في مقاله «رؤية واضحة» يتحدث المفكر عن عودته إلى وطنه وبدئه في تشكيل رؤية واضحة عن الواقع العربي المتخلف، كما يقدم وصفة أو هندسة للفعل النهضوي يكون عنوانها الكبير هو المنهج العلمي، لكن العلم الكشفي الإبداعي لا الاستدعائي، وكذلك العلم الذي يتحول إلى أسلوب حياة وطريقة تفكير ويكون بقيمه وروحيه ثقافة جمهور وعامة.

□ في مقاله «مطالع النور» يرافع المفكر عن قناعته المتمثلة في أن العرب ليسوا بدعا بين الأمم، وأن عصرهم لا يختلف عن عصور غيرهم، «فعصرنا كأي عصر آخر علمه نور وثقافتنا كأي ثقافة أخرى تختار لنفسها كيف تستضيء بذلك النور»[٢] وفي ذلك تحديد بين وصريح لتوجهه الفكري القائم على « دعوة مفصلة نحو علمية عصرنا»[٣].

□ في مقاله «المطبوعة الزرقاء» يدافع عن فكرة الوضوح محاولا تحديد المشهد الثقافي والفكري العربي محددا الحدود الفاصلة بين أجزائه علما وأدبا ودينا وفلسفة، حتى يتسنى لنا إدراك حقيقة الأفكار والمواقف والأشياء، فأجهل الجاهلين من يجهل جهله، وأعلم العالمين عالم بجهله.

□ في مقاله «إرادة التغيير» يتحدث عن معايشته لحدث ثورة الضباط الأحرار وما لحقها من وعود تطلعية ومشاريع نهضوية لم تثمر بسبب واحد في اعتقاده هو الغموض الفكري الذي غيب محاولة ضبط المفاهيم وأعاق إمكانية بناء حوار فكري جوهري حول تطلعات الأمة، وما يذكره كمثال عن ذلك هو جعل الثقافة خادمة للسياسة وليس العكس، واعتقاد التوجه المجتمعي العام أن الثقافة هي ثقافة الجمهور ولا وجود لثقافة رفيعة تخص النخبة، وإن وجدت ففي ذلك نوع من التسلط والتفاوت الطبقي الظالم.

---

(١) زكي نجيب محمود. حصاد السنين. ط٣، دار الشروق. القاهرة. ٢٠٠٥. ص١٢٢.

(٢) نفس المرجع. ص١٧٢.

(٣) نفس المرجع. ص١٩٧.

□ في مقاله «في سبيل الوضوح» مرافعة قوية وعنيفة عن فكرة «الوضوح» معتقدا الدكتور أن ما جنى على الأمة الويلات وأورثها التخلف والانكسار واهتراء مشاهدها الثقافية والفكرية، إنما هو الغموض الفكري الذي يؤدي إلى حوار ونقد فكري غير مؤسس وبمعية هذه المرافعة يذكر المفكر ما لقاه من نقد غير منطقي في حق كتابه «خرافة الميتافيزيقا».

□ في مقاله «خيوط تلاقت» يتحدث المفكر عن النمو التصاعدي لأفكاره وقناعاته، فاعتقد أن مواقفه سارت طيلة العقود السابقة في حركة من النمو والتكامل، فلما جاء عليها عقد الستينات اكتسبت قدرا كبيرا من النضج والكمال، فكان اللاحق منها يكمل السابق منها دون رفضه، لأنها كانت تسير وفق محور واحد وهو دعوته إلى المنهج العلمي وفكرة الوضوح وضرورة تحديد المعاني.

□ في مقاله «رؤية موحدة» يدافع المفكر عن اعتقاده أن الفلسفة منهج وليست موضوعا، «ومن هنا اختار صاحبنا لنفسه وجهة النظر التي تجعل الفكر الفلسفي منهجا في تحليل العلم والفكر وما ينتهيان إليه، تحليلا يبين الصحيح من الفاسد، معفية الفيلسوف من التزام موضوع معين»[1].

□ في مقاله الأخير «نهاية الطريق» يذكر المفكر تجربته مع التراث الفكري العربي، خاصة بعد تنقله إلى جامعة الكويت وأخذه في إعادة تدارس هذا التراث، واقتناعه أخيرا بوجود مساحات كبيرة للعقل، واعتقاده أن الفرد العربي عقلاني من جهة ووجداني من جهة أخرى، فتراثه يؤكد أنه عالم وشاعر، فلا يضيره في ذلك أن يأخذ من عصره منطق العلم الذي هو أحد مقوماته الأصيلة فيه.

تحليل مضمون الكتاب:

الدكتور «زكي نجيب محمود» المفكر والفيلسوف والأديب، عاش زمنا طويلا ينتقل فيه من مصر، إلى انجلترا، إلى الكويت، وينتقل بفكره من الفلسفة إلى الأدب إلى الصحافة، خبر الكثير من المواقف: بعضها محفز وبعضها مثبط، لكن كلها أسهمت في تشكيل توجهه الفكري وبنائه لدعوة فلسفية، حتى اعتبر عند الكثير الرائد الأساسي للوضعية العربية، وذلك بدفاعه المستمر عن المنهج العلمي والواقعية، وجعل ذلك سبيلا دون سواه لتحقيق مشروع النهضة

(١) نفس المرجع. ص٣٦٤.

العربية، واستمر حاله كذلك إلى أن جاء في أواخر حياته، فعمد إلى توثيق ذلك، مسجلا ما حصده من سنينه، لكن ذلك لم يكن بالشكل السردي البسيط: تسجيلا لحوادث ومواقف مثل ما هو عند غير الفلاسفة، بل ديدن المفكر والفيلسوف، فحتى وإن اقتضت بنية فن السيرة الذاتية توثيق استرداد وسرد الحوادث، فإنما يكون ذلك من حيث أنها مواقف فكرية وقناعات فلسفية.

ومنه فلما نقرأ السيرة الذاتية عند «زكي نجيب محمود» والممثلة في كتابه «حصاد السنين» فإننا نكون بصدد قراءة فلسفته وأفكاره، وذلك لما احتواه كتابه من أفكار فلسفية تنبع من توجهه الفكري، ولعلنا في هذه الورقة البحثية نعرج على بعض من هذه الأفكار الفلسفية التي احتواها الكتاب:

إشكال الفكر العربي المعاصر

في الفكر العربي المعاصر تتباين المدارس والاتجاهات، وكلها تعتبر مشاريع فكرية للإجابة عن الإشكالية الكلاسيكية: «لماذا تخلف العرب وتقدم غيرهم؟» لكن هذه الإشكالية خضعت للعديد من التعديلات منها على سبيل المثال تلك الصياغة التي يقدمها الدكتور «حسن حنفي» في كتابه «حصار الزمن» والتي نصها: «في أي مرحلة من التاريخ نحن نعيش؟ وإلى أي جيل نحن ننتسب؟»[1]، وعلى غرار ذلك يعطي الدكتور «زكي نجيب محمود» صياغة أخرى للإشكال المحوري للفكر العربي المعاصر، محددا بذلك موضوعه ومجال اهتمامه فيقول: «والفكرة الغالبة الدافعة التي أعنيها، فكرة بسيطة غاية البساطة، كبيرة غاية الكبر، فهي فكرة تسأل حاملها وتلح في السؤال: كيف جاز أن يلتئم ذلك التاريخ الطويل المجيد، مع هذا الحاضر الذليل العقيم؟ بل هو ذليل لأنه عقيم؟»[2].

نسبية المعرفة:

علمت شيئا وغابت عنك أشياء، ولا وجود لحقيقة مطلقة، وأن ما صح اليوم، سيأتي الغد بما يؤكد بطلانه وفساده، وأن «تاريخ العلم تاريخ أخطاء»، هذه القاعدة الابستمولوجية للفعل

(١) نفس المرجع. ص٩٣.
(٢) نفس المرجع. ص٢٠.

المعرفي والعلمي والقاضية بتراكمية ونسبية الحقيقة، والمحاربة للمطلقية والصنمية والوثوقية والدوغماتية، هي ما يجعله المفكر «زكي نجيب محمود» أسلوب حياة لديه وطريقة تفكير داعيا إلى ذلك، فهو - كما يصرح- لم يكن يجد حرجا من أن يعود إلى تصحيح أفكاره وتعديلها كلما تبين له نقصها أو فسادها، فنجده يقول، «وكان لابد لتلك النفس، مع تعاقب الأعوام وامتدادها، من أن يعاودها القلق آنا بعد آن، حول فكرة كانت قد اطمأنت إليها في مرحلة سابقة من مراحل العمر، فلم يكن صاحبنا يتردد في تصحيح فكره، فليس هو من ذلك الصنف الذي يتوهم بأن كرامته تقتضي أن يتمسك بفكرة ثبت بطلانها»[١].

الثبات والتغير:

فكرتي الثبات والتغير تحتلا مساحة واسعة من الفكر الفلسفي، فالفلسفات التي نادت بفكرة الجوهر والهوية، اعتقدت أن الأصل هو الثبات، أما التغير فهو حالة طارئة، لكن في اعتقاد فلسفات أخرى ينحاز إليها المفكر «زكي نجيب محمود» نجدها تؤمن بمفاهيم التطور والتقدم وأن التغير هو الأصل أما الثبات فهو حالة طارئة، إذ يقول معتقدنا أن فلسفات الجوهر والهوية والثبات، هي فلسفات عصور خلت، أما عصرنا فيدين بفلسفات التقدم والتطور والتغير: «فجاءتنا فلسفة عصرنا هذا برؤية أخرى تتلاءم مع فكرة التطور التي تسود، وهي أن أي شيء في هذا الوجود، بل الوجود كله في مجموعه إنما هو سيرة أي أنه تاريخ، بمعنى أنه يتألف من حالات تختلف أو تتشابه يعقب بعضها بعضا في تلاحق سريع»[٢]. وفي المعنى نفسه يقول: «فبعد أن كان الظن في كل شيء هو أن الأصل فيه سكون وثبات حتى يطرأ عليه من خارجه عامل يحركه من سكونه وثباته، ويبث فيه التغير بعد ثباته وسباته، أصبح الظن هو أن الأصل في كل شيء حركة وتغير، إلا إذا جاءه عامل من خارجه فأوقف حركته ورده إلى سكون، وأزال عنه التغير ليصبه في قالب الثبات»[٣].

مبدأ الماهية وفكرة الوضوح:

المفكر «زكي نجيب محمود دافع كثيرا عن فكرة الوضوح والتعريف الماهوي، يقينا منه

(١) نفس المرجع. ص٢١.
(٢) نفس المرجع. ص٣٦.
(٣) نفس المرجع. ص٣٨.

أنه لا يستقيم الحوار ولا ينتج الاستدلال إلا إذا ضبط مفهوم القضايا والحدود، وفي اعتقاده لابد من عودة سقراطية لتحديد مفهوم العدالة والحرية والسياسة والأخلاق والإنسان والسلطة وغيرها من المفاهيم التي نفعلها في مشاريعنا النهضوية، كما أن الدكتور لم يكن بدعوته هذه بدعا بين المفكرين العرب، فهذا المفكر المغربي «عبد الله العروي» يقدم سلسلة من المفاهيم مثل الإيديولوجيا والعقل والحرية والتاريخ وغيرها.

كما أن المفكر «زكي نجيب محمود لم ينفي تأثره الشديد بموقف سقراط أمام السفسطائيين، وذلك بعد ترجمته لمحاورات أفلاطون، إذ يقول: «وذلك أن الفيلسوف قد حاول مع محاوريه لأول مرة في تاريخ الفكر الإنساني، أن يحدد معاني الكلمات التي يستخدمونها في مجالات الحياة الجارية، وإلا فهل يعتقد أن يتحدث ناقد عن أثر من آثار الفن وهو لا يدري بأي الخصائص يتميز الفن؟»[١]، كما يقول كذلك: «لم يكن المصباح السقراطي الذي خرج به قليل الشأن في تنويره»[٢].

مسألة الحرية:

الفكر العربي المعاصر وهو فكر أزمة، جاء كرد فعل ضد الاستعمار والاستبداد، لا جرم أن تكون مسألة الحرية بمضامينها الفردية والسياسية والاجتماعية والفكرية، أهم قضية يرافع حولها هذا الفكر، فهي تملأ سواد كبير منه: حرية الفرد، حرية الأمة (الاستقلال وتقرير المصير)، حرية الفكر (الديمقراطية وحق إبداء الرأي)، ... ولم يكن المفكر «زكي نجيب محمود» وهو صاحب الوضعية المنطقية والمنهج العلمي، صحب المعقول واللامعقول ينأى بشخصه وفكره وقلمه عن مسألة الحرية، بل وقفته عندها كانت مطولة، لدرجة أن كتابه «حصاد السنين» يسجل له وقفات مع مسألة الحرية، وقفات وإن كانت مختلفة فهي متكاملة.

ولعل بداية وقفاته هو اعتقاده أن الحرية الفكرية هي الأصل، أما الحرية السياسية والاقتصادية والاجتماعية فهي فروع أو تجليات لها، تنعدم بانعدام أصلها، إذ يقول في هذا الشأن: «إذ ماذا يجدي إذا أزيلت الأغلال عن الأقدام، وبقيت أغلال تقيد العقول؟ ماذا يجدي أن تظفر أمة بحريتها السياسية، حتى إذا ما همت بعد ذلك تبني قوائم حياتها الجديدة

(١) نفس المرجع. ص٤٥.
(٢) نفس المرجع. ص٥٣.

وجدت نفسها في حاجة إلى ذلك المستعمر نفسه تطلب منه أن يعينها بعلمه وخبرته وأجهزته؟ أليس سيد الأمس نفسه سيد اليوم؟ ولم يغير من الأمر شيئا أن تنتقل الأغلال من الأقدام إلى الرؤوس؟»[١].

ثاني وقفة له مع الحرية، عندما يجعلها حقا مسئولا عن جميع حقوق الإنسان الأخرى: الحق في الحياة، الحق في العمل، الحق في التعبير، الحق في التنقل، وغيرها من الحقوق التي هي عند المفكر مجرد فروع تتفرع عن حق الحرية الذي هو الأصل، إذ يقول: «رآها أصلا ورأى سائر الحقوق فروعا لها»[٢].

وثالث وقفة له مع الحرية هي عندما يحاول ضبط مفهومها معتقدا بوجود معنيين لها: المعنى السلبي الذي يجعل منها تحررا، والمعنى الايجابي الذي يجعل منها فعلا، كما يشترط في الفعل الحر شرط العلم المسبق بالفعل، ومع هذا المستوى في اعتقاده تتحقق الحرية كفعل يحقق مشروع النهضة، لا الحرية بمفهومها السلبي أين تكون مجرد تحرر[٣].

مسألة النهضة:

لماذا تخلف العرب؟ كيف نحقق نهضة عربية؟ هذا السؤال المحوري للفكر العربي المعاصر، كان لمفكرنا «زكي نجيب محمود» موقفا منه في كتب ومقالات كثيرة أخرى، ولكنه في كتابه «حصاد السنين» نجده يعود إلى هذه المواقف الفكرية ليضفي عليها نوعا من التوضيح والتبرير، إذ يقول في هذا الصدد: «إذا كانت مشكلتنا هي التخلف الحضاري، هكذا رآها صاحبنا، عندئذ، وكان الفرض المفترض لحلها، هو أن نأخذ بجانب العلم ولواحقه، في صورته التقنية الجديدة، على أن تظل لنا تلك الجوانب من ثقافتنا، التي نراها ضرورية للإبقاء على هويتنا القومية والوطنية»[٤].

ثم بعد تحديده للعلة التي هي التخلف وللعلاج الذي هو النهضة والحضارة عن طريق العلم ومنهجه، يقدم بعضا من الاستدراكات منها:

---

(١) نفس المرجع. ص٨٥.
(٢) نفس المرجع. ص١٠٧.
(٣) نفس المرجع. ص٣٣٨.
(٤) نفس المرجع. ص١٢٦.

أولا: العلم ليس كنتائج ونظريات ورؤى وتطبيقات، وإنما العلم كمنهج، لأن ما يوجد لدينا من مؤلفات ومعاهد يوحي كلها بحظنا الوافر من العلم، لكن علم أخذناه عن الغرب كنتائج، أو على شكل دراسات انتهت وحاول علماءنا القيام بشبيهها، فنحن مازلنا «لم نشرب من المنهج العلمي الجديد شيئا»[١].

ثانيا: المنهج العلمي ليس كطريق للفعل المعرفي، ليس ببعده الميتودولوجي أو الابستمولوجي، وإنما كروح وقيم مثل: الموضوعية والوضعية والدقة والوضوح والاستنتاج السليم وضبط المفاهيم والصدق .... فكل هذا الذي يصنع المنهج العلمي لا يجب أن نأخذ به أثناء التجارب والدراسات فقط، وإنما يجب حتى نحقق فعلا نهضويا أن نحوله إلى أسلوب حياة ونوع من العلاقات الاجتماعية، لأن مشكلتنا مع العلم في اعتقاد الدكتور أننا « قادرون على خلع الرؤية العلمية منذ اللحظة التي نترك فيها غرفة البحث العلمي، تماما كما نخلع ثياب العمل بعد عودتنا إلى منازلنا»[٢].

مسألة الحضارة:

نظريات الحضارة كثيرة متعددة، المشرق فيها في فكرنا العربي المعاصر ما ذكره المفكر الجزائري «مالك بن نبي» عندما يحدد ثلاثة مقومات أساسية للحضارة: الإنسان والوقت والتراب، وعلى شاكلة ذلك يذهب المفكر «زكي نجيب محمود» في كتابه «حصاد السنين» إلى ذكر ثلاثة مقومات للحضارة وهي الدين والعلم والفن، فاصلا بين مستويين لها: مستوى الضرورات ومستوى ما فوق الضرورات، معتقدا أن الدين والعلم يحققان المستوى الأول، بينما الفن يحقق المستوى الثاني، ضاربا مع ذلك مشهدا رائعا لاتحاد وتكامل هذه الجوانب الفكرية والمعرفية، إذ يقول: «ودليل الإثبات عندنا -في اختصار شديد- هو أن من أهم المقومات الحضارية دائما: الدين والعلم والفن بما فيه الفن الأدبي، فالدين مع جوانبه الإيمانية يستتبع صورا معينة من الأخلاق والسلوك، والعلم يتبعه صناعة وزراعة وعمران، تقوم على هداه، والفن بكل فروعه يضيف إلى تلك الضرورات التي تفرض نفسها على الناس فرضا، إضافات يبدعها الفنان له وللناس، استعلاء بذواتهم عن أحكام الضرورة»[٣].

---

(١) نفس المرجع. ص١٢٩.

(٢) نفس المرجع. ص١٢٩.

(٣) نفس المرجع. ص١٢٨.

مفهوم الفلسفة والتفلسف

فيلسوف ومفكر أسير الإشكاليات الفلسفية التي يثيرها، لما يدعى إلى كتابة سيرته الذاتية، لا شك أن من أهم ما يضمنه مذكراته تعريفا به، ولا يكون هذا التعريف كاملا موفيا بالطلب إلا إذا كان تعريفا بالماهية، على أن تكون ماهيته هي ذلك الجانب الفكري فيه والذي يضم انشغالاته وأسئلته وهواجسه الفكرية وما قدمه من رؤى وطروحات، وباعتباره فيلسوفا كانت طبيعة التفلسف وغايات الدرس الفلسفي، وتاريخ الفلسفة، تحتل مكانا كبيرا من سيرته الذاتية:

فنجده بداية ينفي أن تكون الفلسفة ضمن المعارف الإنسانية الأخرى، بل هي خارجة عن كل تصنيف معرفي، فالفلسفة في اعتقاد الدكتور منهج لا موضوع إذ يقول: «عملية التفكير عند الفيلسوف إن هي إلا منهج يستطيع به أن يرد فروع الحياة من حوله إلى أصل فكري واحد، يصل إليه بعمليات من التحليل المنطقي لما يراه، كي يستخرج من جوف الأمور الواقعة ما هو مضمر فيها من دلالات»[١].

ومع هذا النص يتضح التوجه الوضعي والمنطقي للفيلسوف الذي يجعل من الفلسفة منهجا منطقيا يعود إلى الواقع دون التعالي عليه أو الانفلات منه، ولعل هذا التوجه يعبر عنه بشكل أكثر صراحة عندما يقول: «الفكر الفلسفي بكل صوره ومذاهبه، وثيق العرى بالحياة الفعلية التي يعيش الناس في رحابها وثناياها»[٢]، أي دون أن تكون الفلسفة شيئا بعيدا عن معيش الأفراد، وقوة الفيلسوف وبراعته تتأتاه ليس من غموضه وإبهام أفكاره، بل على العكس من ذلك إذ «غاية الفيلسوف من عمله هي وضوح أفكاره»[٣].

لكن الفلسفة ليست ذلك التحليل السطحي الساذج الذي يستطيع أن يمارسه كل فرد، بل هي كذلك لكن بدرجة أكثر عمقا وأكثر منطقية وأكثر نسقية، الأمر الذي يجعل الفيلسوف يهتدي إلى عناصر الواقع التي لا يهتدي إليها غيره «فمن الذي يستخرج لهم من بحر الحياة العملية الهائج بفعله وانفعاله، المائج بخصوماته ومصالحاته، ما عساه أن

(١) نفس المرجع. ص١٤٩.
(٢) نفس المرجع. ص١٥١.
(٣) نفس المرجع. ص١٥٣.

يكون غارقا في قاعه من مبادئ دقيقة وغايات مضمرة؟ إنه الفكر الفلسفي بأهم وجه من وجوهه»[١].

وإذا كان هذا هو مفهوم الفلسفة وعملية التفلسف، فماذا يستخلص الدارس للفلسفة وتاريخها ومذاهبها؟ في إطار ما يذكره الدكتور من تصويبات ومغالطات تسربت إلى ذهن العامة وبعل الزمن ترسبت، خاصة منها ما يلحق بالفلسفة وعملية التفلسف، إذ يذكر الدكتور أن غاية دارس الفلسفة ليس الإلمام بتاريخها ومذاهبها وشخصياتها، بل هو كذلك ولكن بالإضافة إلى اكتساب قدرة على التحليل والتعميم وربط الأسباب، قدرة على رد المشاهد والمسائل إلى بعضها البعض حتى يتسنى له فهمها بشكل أكثر وضوحا وأكثر عمقا، إذ «الفلسفة لا تشترط لنفسها موضوعا معينا، لأنها منهج أولا وأخرا ينصب به صاحبه على ما شاء من موضوعات العلوم والثقافة، وتكون مهمته في ذلك هي أن يرتد بالموضوع الذي ينظر فيه إلى مبادئه الأولى التي عليها يقام هيكل بنائه»[٢] فالفلسفة معرفة المبادئ.

ملاحظة

هذه بعض من الأفكار الفلسفية والمواقف الفكرية التي تضمنها كتاب «حصاد السنين» وما لم نقف عنده من مواقف فلسفية أكبر، وهذا ما يدل قطعا على أن كتاب «حصاد السنين» للدكتور زكي نجيب محمود الذي يصنف على أنه سيرة ذاتية له، إنما يشمل من الأفكار والمواقف والرؤى بمنزلة ما شملته كتبه ومؤلفاته الأخرى.

خاتمة

«فن السيرة الذاتية» عمل فكري ومعرفي أخذ به في جميع مجالات المعرفة: الأدب والسياسة والفلسفة والفكر... وربما حتى بالنسبة لأفراد آخرين العملي لديهم أكثر من النظري والفكري أمثال العسكريين والمصلحين وغيرهم.

لكن ذلك لا يوحي أبدا بوجود قالب شكلي وبنية محددة يأخذ بها في جميع المجالات، بل

(١) نفس المرجع. ص١٨٧.
(٢) نفس المرجع. ص١٥١.

ما يكتب الأديب أو السياسي أو المصلح الديني أو العسكري أو الفيلسوف، يختلف عن بعضه البعض خاصة من حيث مضامينه، ولعل ما يميز السيرة الذاتية عند المفكر أو الفيلسوف، هو أن تكون سيرته الذاتية فلسفة وفكرا، فالقارئ لقصة نفس أو قصة عقل أو حصاد السنين للدكتور زكي نجيب محمود لا يجد نفسه أمام سرد سطحي لأحداث ومراحل حياة فقط، بل يجد نفسه أمام نصوص ومعالجات فلسفية، لعدد كبير من الإشكاليات الفلسفية، يجد نفسه أمام فلسفة، أمام توجه فلسفي معين.

وكذلك الحال بالنسبة لجميع مفكري العرب المعاصرين الذين كانت لهم سيرا ذاتية، وكذا ما ينسب إلى فلاسفة ومفكري الغرب الحديث والمعاصر، لا نجد قصة حياة و إنما قصة قلم وحياة فكر.